النهار ٦ آذار ٢٠١٨

قضايا

علمانيّة فؤاد زكريّا في ذكراه: التحرّر من العلاقة المَرَضيّة بالماضي

الأب صلاح أبوجوده اليسوعي

أستاذ في جامعة القدّيس يوسف

كان يَعلم فؤاد زكريّا (١٩٢٧ - آذار ٢٠١٠)، أحد أبرز روّاد الوجوديّة والعلمانيّة في العالم العربيّ، أنّ المناداة بالعلمانيّة في وجه الحركة الإسلاميّة الصاعدة التي تزيل من دربها كلّ العوائق، ويمتدّ تأثيرها في الخطابات والممارسات السياسيّة بفضل عناصر إيديولوجيّتها الجذابة، أمر عسير جدًّا. كان موقفه هذا في ثمانينيّات القرن المنصرم، بعد أن نجحت الثورة الإسلاميّة في إيران في إزالة حكم الشاه الاستبداديّ، وفشلها في إقامة حكم معاصر قادر على مواكبة الحداثة. في نظر زكريّا، كانت تلك الثورة امتحانًا حاسمًا لجميع الحركات الإسلاميّة. إذ لو نجحت في تأسيس مجتمع تسوده العدالة والحريّة والمساواة والتقدّم، لكانت الحركة الإسلاميّة على تنوّع صيغها قد فرضت نفسها بديلاً لا يُقاوم ولا يُنافس عن أنظمة الطغيان والتخلّف والفساد التي تسود العالم العربيّ. ولكنّ الثورة الإسلاميّة أخفقت، وإخفاقها،

في رأي زكريّا، يعني الحركة الإسلاميّة كلّها، إذ لم يعد بمقدورها أن تنادي بإقامة حكم إسلاميّ يطبّق الشريعة .

لم يكن ربط زكريّا الحركة الإسلاميّة وغالبيّة مكوّناتها من السنّة، بنتائج الثورة الإسلاميّة في إيران ساذجًا أو متسرّعًا، بل نابع من نظرته الثاقبة إلى خصائص الفكر الإسلامويّ الشموليّ، وأبرزها تجاهل الخبرات التاريخيّة ونتائج التجارب المعاصرة والراهنة، وتجاهل الواقع، وكأنّ هذا الفكر خارج الزمن. أمّا السبب فيكمن في فهم الماضي والحاضر والمستقبل والإنسان والعالم في ضوء النصوص الدينيّة. فثمّة علاقة مرضيّة لهذا الفكر بالماضي، رسّخت طريقة تفكير تسلطيّة ورجعيّة هي من مزايا الذهنيّة القروسطيّة. فإزاء كلّ مشكلة راهنة أو واقع جديد، يتّجه الفكر الإسلامويّ لاشعوريًّا وبطريقة حصريّة إلى البحث في النصوص المقدّسة عن حلول من خلال القياس. وفي حال غياب ما يقيس عليه في تلك النصوص، يلجأ إلى الاجتهاد ضمن أطر روح النصّ الموروثة التي تؤلِّف سلطة لا يمكن تجاوزها، وأطر أحكام الشريعة. وليس غريبًا في هذه الحال أن تبرز النزعة إلى أسلمة أهمّ مكتسبات الحداثة، وفي طليعتها حقوق الإنسان التي صدرت نسختها الإسلاميّة، والاكتشافات العلميّة التي يسعى الكثيرون إلى البحث عن علاماتها في النصّ القرآنيّ، أو حتّى المطالبة بأسلمة الاقتصاد والفنون وغيرها. ولكن، ألا يعني هذا المسعى بالعمق التغرّب عن الواقع؟ وهذا التغرّب، ألا يعني عدم الإيمان بقدرة العقل على مواجهة مشاكل العصر، واستقالته من خلال اللجوء إلى مصادر خارجة عنه؟ وفي الواقع، فإنّ الذهنيّة القروسطيّة التسلطيّة السائدة تمنع من القيام بمراجعة نقديّة للتشريعات الإسلاميّة السابقة نفسها، بحيث تُنقَّى ممّا علق بها من شوائب. يقول زكريّا في كتابه "الحقيقة والوهم في الحركة الإسلاميّة المعاصرة": "إنّ ما يحتاج إليه المجتمع الإسلاميّ حقًّا هو مراجعة قوانينه بحيث تصبح قادرة على معالجة مشكلات الحاضر، ومواجهة تحدّيات المستقبل، وبحيث يُستبعد منها ما هو دخيل وما هو قمعيّ ظالم. ومع ذلك فإنّ النظرة التراجعيّة التي تركّز على العودة إلى الماضي، هي التي تطغى على تفكير الجماعات الإسلاميّة الحاليّة، في حين تختفي تمامًا أيّ نظرة واقعيّة أو مستقبليّة". وبالرغم من هذا الواقع المأسويّ، تبقى الحركة الإسلاميّة الأقوى والأشدّ قدرة على التنامي. فهل من مخرج سوى التشديد على العلمانيّة وقيمها العالميّة وشروط تحقيقها؟

يرفض زكريّا ادّعاءات الإسلامويّين أنّ العلمانيّة تُلغي دور الدّين في المجتمع وتهمّش مكانة قيمه في حياة الناس. فالعلمانيّة في نظره تُبعد الدّين عن السياسة وعن شؤون تنظيم المجتمع وإدارته، وهذا من شأنه أن يخلق انسجامًا بين مكوّنات المجتمع الواحد، ويُرسي أسس العقلانيّة والفكر النقديّ والصرامة العلميّة والاستقلاليّة الفكريّة، وبالتالي يتمّ التحرّر من قيود الماضي، وتتمّ المصالحة مع الواقع. وفي المقابل، يتّخذ الدّين المنزلة التي يجب أن يشغلها في حياة الإنسان والمجتمع، ويصبح خارج حقل السلطة التي تستخدمه مُضفيةً عليه الصيغة التي تخدم مصالحها، ويتمكّن من أن يكتشف قدرته على التأقلم ومتطلّبات الديموقراطيّة والحريّة السياسيّة اللتين لا تنفصلان عن العلمانيّة .

فضلاً عمّا تقدّم، لا يوافق زكريّا اتّهامات الإسلامويّين العلمانيّةَ بالماديّة الصرف وتعارضها وتقليد الماضيّ الفكري، إذ إنّ أوروبّا العلمانيّة عرفت فلاسفة مثاليّين ومفكّرين أرسوا مدارس فكريّة تُعنى بالأدب والتراث الإنسانيّ القديم. كما رفض اعتبار العلمانيّة شكلاً من أشكال الغزو الغربيّ العالمَ العربيّ والإسلاميّ. وفي الواقع، يبدو زكريّا متحرّرًا كليًّا من الصدمات النفسيّة التي يعيشها العالم

العربيّ والإسلاميّ عمومًا تجاه الغرب، إمّا بسبب تفوّق الغرب العلميّ وإمّا بسبب سياساته الاستعماريّة والاستغلاليّة. لذا، لا يتردّد زكريّا في الدعوة إلى اتّخاذ المجتمع العلمانيّ الديموقراطيّ نموذجًا للبلدان الإسلاميّة .

لا بدّ إذًا من التحرّر من العلاقة المرضيّة بالماضي! هذا هو مفتاح تحقيق العلمانيّة التي تبقى وسيلة الخلاص الوحيدة. وهذا التحرّر يعني إحداث قطيعة إبستيمولوجيّة مماثلة لتلك التي أدّت إلى حداثة أوروبّا. وليس المقصود بهذه القطيعة "نفي" الماضي أو "إنكاره"، بل تحرير الفكر من سجنه. ولا بدّ من الفصل الصريح بين العلمانيّة التي ادّعتها بعض الأنظمة العربيّة وارتكبت باسمها المظالم المذهبيّة، والعلمانيّة بصيغتها الشيوعيّة التي تحارب الدّين، وصيغ العلمانيّة الإيجابيّة التي هي خير للدّين والمجتمع والدولة .

لقد تبدّدت الآمال التي عُقدت على الانتفاضات العربيّة من أجل بداية زمن جديد في العالم العربيّ شعاره الحريّة والتقدّم. إذ إنّ أنظمةً قديمة عادت بعد أن سقطت أو اشتدّت عزيمتها بعد أن تخلخلت أسسها، ومعها عاد استغلال الدّين، ولا سيّما مؤسّساته الرسميّة خدمةً لمصالحها. وعادت الحركات الإسلاميّة إلى مواقعها المعهودة المعارضة رافعةً شعاراتها نفسها. وفي أعقاب انهيار "خلافة الدولة الإسلاميّة"، دخل الشرق الأوسط في أجواء مواجهات متعدّدة، تبقى أبرزها مواجهة المملكةُ العربيّة السعوديّة الجمهوريّةَ الإسلاميّة في إيران، وقد دخلت روسيا والولايات المتّحدة الأميركيّة طرفين في هذه المواجهة. وبالرغم من أنّ تحوّلها إلى حرب مباشرة بين الدولتَين يبقى مستبعدًا، إذ إنّها ستكون بمثابة انتحار للطرفَين، فإنّها مرشّحة للتصاعد "بالوكالة" سياسيًّا وعسكريًّا، وتكتسب بتزايد صفة صراع سنيّ - شيعيّ. وبصرف النظر عن قدرة المملكة السعوديّة أو عدم قدرتها على مصادرة تمثيل السنّة العرب أو غالبيّتهم، وقدرة إيران أو عدم قدرتها على مصادرة تمثيل شيعة الشرق الأوسط، فإنّ المشكلة تكمن في تحديد أهداف هذه المواجهة. فإنّ أيًّا من الدولتَين لا يقدِّم نموذج حكم إسلاميّ معاصر يضمن الحريّة والعدالة والقانون وتطوّرها. فكما قال فؤاد زكريّا، لقد أخفقت الثورة الإسلاميّة كليًّا في هذا الميدان، وإن كانت تتابع سعيها إلى نشر إيديولوجيّتها. والأمر عينه ينطبق على النموذج الوهابيّ في المملكة السعوديّة. وفي الحالتَين، ليس من نقد ذاتيّ ولا مواجهة الواقع بموضوعيّة ولا مراجعة نقديّة لخبرات الماضي. فالصراع المذهبيّ يوقظ عصبيّات لا عقلانيّة، ويستعيد أحداثًا مضى عليها قرون، ليعصرنها من خلال ربطها بالظروف الراهنة، ويوظفها في الخطاب الدينيّ، فيُقفل على أجيالٍ جديدة في سجن الماضي الذي لا يولّد إلاّ الكوارث، ولكن، ربّما، يخدم مصالح ضيّقة .

تجاه هذا المشهد، تبقى طروحات فؤاد زكريّا آنيّة، ولكن، كما تقول الحكمة: على مَن تقرأ مزاميرك يا داوود !